الرواية

مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً فى أول كل شهر وفى نصفه

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة

مص	
٣٠	فى مصر والسودان
٥٠	فى الممالك الأخرى
١	ثمن العدد الواحد

الادارة

دار الرسالة بشارع المبدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠

العدد ٥٧ — ١٣ ربيع الآخر سنة ١٣٥٨ — أول يونيو سنة ١٩٣٩ — السنة الثالثة

فهرس العـــدد

صفحة			
٥٠٦	الشريدة	أقصوصة مصرية	بقلم الأستاذ نجيب محفوظ ...
٥١٦	وجيـــدة	أقصوصة عراقية	بقلم الأديب ناجي محمود العزاوي
٥١٩	وفاء	للقصصي الروسي أنطون تشيكوف	بقلم الأديب فيصـــل عبد الله ...
٥٢١	مغامرات فتاة	أقصوصة مصرية	بقلم الأستاذ دربي خشبة ... ...
٥٤٠	الباب المفتوح	للكاتب الانجليزى الكبير « الساقي »	بقلم الأستاذ عبد الحميد حمدي ...
٥٤٤	ما ذنبها ؟	أقصوصة مصرية	بقلم الآنسة جميلة العلايلى ...
٥٥٦	فقدان الذاكرة	عن الانجليزية	بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار
٥٥٧	الشيطانات	للكاتب الفرنسى جى دى موباسان	بقلم الأديب عادل الجمال ... ...

الشريدة

أقصوصة مصرية

بقلم الأستاذ نجيب محفوظ

الغالب على أحاديث الشبان فى هذه الأيام أن تتجه نحو غرضين : النساء والسياسة ، وحول هذين الموضوعين دار الحديث فى مجتمع من الأصدقاء كان من حظى المشاركة فيه محدثاً ومنصتاً . وقد بدأ الحديث فاتراً مبتذلاً فلم يستطع أن يجتذب إلا بعض انتباهى ، حتى تكلم ذلك الصديق البارع وتدفقت الذكريات على لسانه الذرب فألقيت إليه بانتباهى كله ، لأن حديثه كان قصة مستوفاة العناصر ، ومثل هذا الحديث يستبد بمشاعرى استبداد المال بقلب اليهودى الشحيح وإليك ما قصه صاحبى — قال :

لا يكاد يخلو تاريخ شاب من امرأة ، ولكنه قد يخلو من المرأة المؤثرة التى تترك وراءها شاهداً عميقاً لا ينال منه طمس السنين كالوشم فى اليد أو الصدر . وقد عرفت نساء كثيرات لا أذكر منهن إلا أثراً ذاهباً من اللذة أو الألم ، أو أطيافاً غارقة فى الظلام والنسيان ، إلا امرأة ، بدت فى فترة من حياتى كالكوكب الدرى ينير أبداً ويضئ ما حوله ، فلا أنا أنساها ، ولا يغمر النسيان حياتى التى غمرتها بروحها الرقيق ... لماذا ... ألأنها كانت أجمل من عرفت ؟ ... أو أحبهن إلى قلبى ؟ ... لا أعتقد هذا ولكن ربما لأنها كانت أتعسهن جميعاً ولأن تعاستها هذه كانت السبب الخفى فى سعادتى بها زمناً طيباً لن يعود أبداً

ويرجع عهد معرفتى بها إلى يوم من أيام عام ١٩٢٠ وكنت آنئذ طالباً فى السنة الأولى بمدرسة الزراعة العليا ، استيقظت ذلك اليوم فى الصباح الباكر كعادتى فجاءتنى والدتى وقالت لى :

— حسونه ... أرى أن أخبرك أن ضيفة نزلت بيتنا ، وأنها ربما أقامت بيننا إلى أجل غير مسمى ...

فنظرت إليها بغرابة وقلت لها :

— من هى ...

— زينب هانم زوج اليوزباشى محمد راضى جارنا ،

فاستولت علىّ الدهشة وقلت :

— لكنها ما زالت عروساً فى شهر العسل ... أليس كذلك ...؟

— هو ذلك يا بنى ، والظاهر أنها تعسة الحظ لأنها اضطرت إلى هجر بيتها والالتجاء إلىّ فى الصباح الباكر ، وزوجها ولا شك رجل غليظ فظ لا تسهل معاشرته ، وإلا ما تركها تهيم على وجهها وهو يعلم أن لا أقارب لها فى القاهرة ...

وكانت والدتى شديدة التأثر فقلت :

— مسكينة ...

فقالت بانفعال :

— كانت أم هذه الشابة صديقة صباى ، وإنى

أرجو صادقة أن تعيش بيننا سعيدة ...
ثم أردفت بلهجة ذات مغزى
— وأن تكون لها يا حسونة أخاً كريماً ...
وبادرت قائلاً :
— طبعاً ... طبعاً ... يا أماه .

وذهبت إلى المدرسة وأنا أتذكر كلمة والدتي الأخيرة واللهجة التي قالتها بها ؟ وأحسست بمزيج من الخجل والغضب . ترى هل تشفق والدتي من سلوكي على ضيفتنا ؟ ثم خطر لي أن أتساءل — هل هي جميلة إلى حد تبرير والدتي ... جالت أفكاري حول ذلك طول الطريق من مصر الجديدة إلى الجيزة. والحق أن كلمة والدتي البريئة أوجدت في نفسي منذ البداية الاستعداد الذي كانت تشفق منه أيما إشفاق .

وكان جو بيتنا غاية في الهدوء ، فوالدي كان حينذاك قاضياً بمحكمة طنطا الأهلية ، وكان يقيم نصف الأسبوع في القاهرة ونصفه الثاني في محل عمله ؛ وكان أخي على في المدرسة الحربية ، وأخي عادل في بعثة مدرسة الطب بالنمسا . وفي ذلك الجو المغمور بالهدوء والسكينة عرفت زينب هانم العروس التعسة . . . وقد خيل إلىّ وأنا ألقى عليها النظرة الأولى أنى أرى صبية صغيرة . نعم كانت بضة ممتلئة بادية الأنوثة ، ولكنى قرأت في عينيها العسليتين نظرة براءة وسذاجة . بل طفولة كاملة لولا ما يلوح فيهما بين الحين والحين من الحزن العميق الذي لاتعرفه الطفولة الحقة ...

وكان الشباب في ذلك العهد غيرهم الآن كانوا أعظم استقامة وأدنى إلى العفة والطهر ، وأرعى عهداً للتقاليد ، وكانت المرأة المصونة تبدو دئماً وكأنها محاطة بسياج من الأسلاك الشائكة . وكان الحب بعيداً نسبيا عن التهتك والابتذال اللذين صرعاه أخيراً وأورداه الإباحية والجنون ، فكانت العواطف تزدهر في القلب وتنبت الآمال والأماني ، وتنصهر في العقل وتخلق الأخيلة والأحلام ، وتكتسي بحلى نادرة من صنع الأوهام والأطياف ...

فكان يقنعني من زينب نظرة أختلسها من وجهها الحسن أو جسمها البض ، لتكون زادي في النهار والليل وفي اليقظة والنوم ، وأصبحت وأمسيت في عالم أثيرى جميل بث في وجداني حياة ناضرة كالحياة التي ينشرها الربيع في الحقول والبساتين . على أن الأمر لم يقتصر على ذلك فجرى الحديث بيننا مرات ، ولعبنا الورق مرة والنرد أخرى ... وغالبتني عواطفي فوسوست إلى نفسي أن أتشجع وتساءلت بخبث لماذا لا أجرب حظي . لماذا لا ألمس أناملها في أثناء اللعب مثلاً ؟ أو أهدي إليها بجدولين فتكون فاتحة حديث لايعلم ختامه إلا الله ... ولكني لقيت من التردد الشيء الكثير، ولم تسعفني الجرأة التي تعلمتها فيما بعد ، وضاع الوقت هباء حتى رجعت يوماً إلى البيت ، فوجدت والدتي وحدها ... وكنت تعودت أن أراها إلى جانبها ، فأحسست بوحشة وضيق ، وكتمت رغبة تلح علىّ بالسؤال لأن تلوث نفسي أفقدني صراحة الأبرياء ، وظننت السؤال فاضحي ، ولم تدعني والدتي فريسة العذاب فقالت لي :

— شكراً لله فقد جاء جارنا الضابط واعتذر

زوجه وعاد بها لأنه نقل إلى أسيوط وقد كلفتني أن أهدي إليك تحياتها ...

وأحسست في الحال إحساس الطالب الذي عني بالسقوط في الامتحان وهو يعلم باختيار الوظيفة اللائقة به . وضاق صدري ذلك اليوم بالبحث فقررت إلى الخارج لأخلو إلى نفسي بعيداً عن عيني والدتي . على أن الصبا دائماً قادر على جرف الأحزان والهموم فاستطعت أن أبرأ في مدة وجيزة ونسيت في غمرة الحياة والآمال تلك الحسرة التي عصرت قلبي أياماً فكانت مثل « الزكام » الذي يفقد الإنسان طعم الحياة حينما يزول سريعاً فكأنه لم يكن ...

ودارت الأيام وانتهيت من الدراسة وحصلت على الدبلوم ، ووظفت في وزارة الزراعة سنة ١٩٢٥ ، ثم انتقلت إلى تفتيش الإسكندرية بعد ذلك بخمس سنوات . وفي الأيام الأولى لهبوطي إلى الإسكندرية آثرت أن أنزل بفندق لأستريح من وعثاء السفر وأبحث في هدوء عن مسكن مناسب ؛ ووقع اختياري على فندق (ريش) لحسن موقعه من البحر لأننا كنا في سبتمبر وهو من الشهور المحبوبة في الإسكندرية يطيب فيه الجو ويهدأ البحر ويصفو ؛ فحملت حقيبتي إليه ونزلت في حجرة من حجرات الطابق الثاني . وأذكر أنه لم يكد يتركني الخادم ويغلق وراءه الباب حتى سمعت طرقاً فخلفت إلى الباب وفتحته ورأيت لدهشتي صديقنا الدكتور أحمد شلبي ، واستقبلته بشوق وأجلسته إلى جانبي وكان يقول لي :

— أحقاً هو أنت ...

ثم أردف :

— كنت تاركاً باب حجرتي مفتوحاً فلمحتك وأنت تتبع الخادم وعرفتك في الحال ..

— هذه فرصة سعيدة

— يا حظك ...

— أي حظ تعني ... أنت تعلم أن موظفي الزراعة لا حظ لهم يحسدون عليه

فقال ضاحكاً :

— أنا لا أتكلم عن الكادر ... ولكن عن فوزك بهذه الحجرة ... فيا حظك ...

— وما الداعي إلى هذا الحسد ... هي حجرة دون حجرات الصف القابل التي تطل نوافذها على البحر ...

— هذا حق ، ولكن شرفتها تمس شرفة الحجرة رقم ٢٤ التي إلى يمينك ؛ وحسبك هذا ...

— وما شأن الحجرة رقم ٢٤ ... ؟

فقال وهو يتنهد :

— تقيم بها امرأة حسناء وحيدة ...

— وحيدة ... ؟

— نعم ... وإلى هذا يعود السبب في أن حجرات هذا الطابق مأهولة كلها

— لعلها ممثلة أو راقصة ...

— هو ما يظنه الرقم ٢٧

فقلت مستفهماً :

— الرقم ٢٧ ... ؟

— أعني زميلي الدكتور السواف المقيم في الحجرة رقم ٢٧ ، ولكني لم أوافقه على ظنه ، لأني خبير بالصالات والراقص جميعاً . والأعجب من هذا أنها تبدو محترمة ولا ينقصها إلا زوج لتكون من المصونات حقاً

فابتسمت وقالت :

— عند الامتحان يكرم المرء أو يهان

— أوه ... كل الأرقام تطاردها مطاردة عنيفة

— ألم يفز أى رقم منها بطائل ... ؟

— فى الظاهر لا ، والله أعلم بالسرائر

وجالسنى الصديق ربع ساعة ، تحدث فيها ما شاء له الحديث ، ثم ودعنى وانصرف إلى حجرته . وكنت تعباً منهوك القوى فنمت ساعة نوماً عميقاً واستيقظت عند العصر ، وفتحت شرفتى وجلست فيها أستروح هواء البحر المنعش . ولاحت منى نظرة إلى الشرفة التى إلى يمينى ، فتذكرت ما قال صديقى الدكتور ، وأدمنت النظر إليها باهتمام وشغف ؛ ولكنى استرددت نظرى بسرعة لأنى سمعت صريراً بابها وهو يفتح ، ونظرت أمامى ، ولحظت بروز شخص ، وخيل إلىّ أنه امرأة ، وتأكد ظنى عند ما عطست ، وحافظت على جمودى وتظاهرت بعدم الاكتراث ... وغالباً ما يفيد البرود وهو إن لم يفد يعز عن الخيبة ...

ولكنى لم أثبت طويلاً ، ونازعنى الشغف إلى النظر فالقيت ببصرى إلى جارتى . ورأيت امرأة أول ما راعنى منها شعور بعدم الغرابة سرعان ما تحول إلى يقين بأنى رأيتها من قبل ، وأنا أتمتع بذاكرة لا تخيب قط فى حفظ الصور فلم ألبث أن ذكرت ... ذكرت جارتنا القديمة ... التى عاشت معى فى بيت واحد بضعة أيام كانت كافية لإنضاج وجدانى ... وتملكتنى الدهشة والاهتمام ...

ولاحت منها نظرة إلىّ فالتفت عيناناً ، وتوقعت بقلب خافق أن أطالع فى وجهها آية التذكر ، وتحفزت للسلام ولكن خاب رجائى ، لأن نظرتها كانت جامدة لا حياة فيها ولم تلبث أن ولتنى ظهرها وعادت من حيث أتت . واأسفاه لقد نسيتنى بغير شك ... وما من شك فى أنها هى جارتنا القديمة وهى ما تزال تحافظ على جمالها وأنوثتها ، ولكن مالها تعيش وحدها فى هذا الفندق ... وما الذى يحملها على هذه الوحدة الغريبة ... وأين زوجها يا ترى ...

وطال تفكيرى فى شأنها حتى قمت لارتداء ثيابى وغادرت حجرتى ، وشاءت المصادفات أن يفتح باب حجرتها على أثر خروجى مباشرة ، فتباطأت فى خطاى حتى حاذتنى وهبطنا الأدراج معاً ووجدت فى نفسى رغبة شديدة فى محادثتها ولم أكن أحجم فى مثل ذلك الموقف فقلت لها بهدوء غريب :

— سعيدة يا هانم ... لعلك تذكرينى ...

فحدجتنى بنظرة إنكار ، ولعلها ظنت أنى أتذرع بالحيلة لاستدراجها إلى محادثتى ، وأسرعت الخطا فلحقت بها عند باب الفندق وقلت لها :

— أهكذا تنسين جيرانك بسرعة ... ألا تذكرين حرم حسن بك هام القاضى ؟ ..

فالقت علىّ نظرة غريبة ولاحت فى عينيها الأحلام وسمعتها تتمتم :

— عدالات هانم ... شارع الزقازيق ...

فقلت بفرح :

— نعم ، هذه والدتى ... وهذا شارعنا ...

فهشت لى وسارت إلى جانبى وهى تقول :

— أأنت ابنها ؟ ... تذكرت ... كيف حال عدالات هانم ؟ ...

فقالت بسرور وقد أيقظ صوتها وجدى القديم بها:
— والدتى بخير ... كيف حالك أنت يا هانم ؟
— عال ، ولكن أين عدالات هانم ؟ ...
— هل أنت هنا وحدك ؟ ...
— نعم ، الأسرة فى رأس البر لأن والدى يحبها ويفضلها على الاسكندرية ، وأنا هنا بحكم عملى
— نسيت اسمك ...
خسوتة ...
وكنت نسيت اسمها كذلك ولكنى نفرت بطبعى من سؤالها عنه ، فمشيت إلى جانبها صامتاً وكان وجدانى فى يقظة قوية ، وأصارحكم القول بأنى من الذين لا يملكون عواطفهم إذا خلوا إلى امرأة أيا كان جمالها ، وأن رغبتى فى النساء عامة لا تعرف التخصص ، وقد كنت قبل نحو عشرين عاماً ذا استعداد للحب ، ولكنى فقدت بمرور الزمن واطراد التجارب وكثرة الأهواء تلك الموهبة الجميلة ودفنت كثيراً من الحيوانات الراقية . وكنت فى ذلك الوقت خاطباً ، وكنت اخترت خطيبتى من بين عشرات الفتيات ولكن ذلك لم يمنع قلبى — ذلك اليوم — من التعلق السريع بتلك المرأة ومعاناة الرغبة والطمع ، قلت لها :
— أأنت وحدك هنا ؟ ...
فقالت بلا اكتراث :
— نعم !
— وزوجك ... ؟
— فى السلوم
— ولماذا تعيشين وحدك ... ؟

فضحكت ضحكة رقيقة وقالت :
— لا ينقصك إلا أن تفتح محضراً للتحقيق وتطالبنى بالشهود ...
فخجلت من فضولى ، وضحكت أدارى خجلى ، ولم تكن عواطفى تكف عن الطغيان فقلت :
— ألا يحسن بنا أن نبحث عن مكان صالح للجلوس ...
فهزت رأسها وقالت بعناد ظريف :
— كلا أنا أفضل الشى لأنى أريد أن أتحف
فنظرت إلى جسمها البض الممتلئ نظرة معذب ووجدت فى كلامها فرصة ذهبية لا ينبغى أن تفلت منى فقلت بإعجاب :
— وما جدوى هذا التعب ... إن جسمك كامل الفتنة ...
فألقت علىّ نظرة جمعت بين الانتقاد والدلال وقالت وهى تشير إلى جسمها :
— هذه موضة قديمة
فقلت بحماس :
— هذا جميل وكفى ... وما عدا ذلك فلا وزن له عندى
— وعند الناس ... ؟
نعم وعند الناس ... كدت أنسى هذا ، إذ خيل إلىّ الوهم الساحر أنى صاحب الشأن الأوحد ، وعلى أنها قالت ما قالت وهى تبسم إلىّ بإغراء ، فاستخفنى الوهم مرة أخرى واشتد بى الطمع فقلت :
— أنت لم تتغيرى فى هذه الفترة الطويلة وكأن التى أراها الآن هى السيدة الجميلة التى أشرقت بنتة

فى بيتنا بمصر الجديدة منذ عشرة أعوام ، وغرست بنتة كذلك فتركتنى أحلم بها أياماً وشهوراً

فنظرت إلىّ بخبث وقالت :

— يالك من ماكر ...

فقلت ضاحكا :

— ما وجه الغرابة فى ذلك ... من يرى هذا الحسن ولا يتمناه ؟

— الظاهر أنى سأجد من الواجب أن أفارقك لأنجو من أمانيك ...

— حاشا أن تفعلى ... بل حاشاى أن أتركك تفعلين . إن فوزى بلقائك بعد هذا الغياب الطويل نعمة من البطر الشرير الكفر بها ...

— إنك تحدثنى كما لو كنا عاشقين افترقا ثم تلاقيا ...

— هذا شعورى بحق ...

— هو أدنى إلى الوهم

— أما من ناحيتى فلا ...

— وأما من ناحيتى فنعم ...

ولكنها قالت ذلك بدلال ورقة ، وهى تبسم ابتسامة عذبة تسيل إغراء (فعلمت أن يمينها لم تحرج) ولم أدهش لما تبدى من استسلام لأن حالتها فى الواقع كانت تدعو إلى الريبة ، وتذكرت ما قال صديقى الدكتور شلبى فقلت :

— إنى أعجب لماذا تقيمين وحدك فى هذا الفندق؟

— أراك تعود إلى التحقيق ...

— كلا لا داعى للتحقيق ... ولكنى علمت أن المقيمين بالطابق الثانى يضايقونك ...

— أبداً لعلهم يضايقونك أنت ...

فتنهدت وتمنعت أن أسمعها تنهدى ثم قلت :

— فليكن ... ألا ترين من الحكمة أن (نترك) فندق ريش ... ؟

— نترك ...

— نعم ... أنا أعنى ما أقول ، وأعرف فندقاً هادئاً فى لوزان فما رأيك ؟

ولم تجبنى ، ولازمت الصمت حيناً ، وبدا على وجهها الاهتمام والتفكير ، فخفق قلبى وساورنى الخوف والقلق ؛ ولكنى أحسست فجأة بذراعها تلتف بذراعى وسرنا متشبكين كالعشاق أو الأزواج ؛ فانثلج صدرى وغمرنى الفرح والفوز ، وقنعت بذلك جواباً ...

وفى مساء ذلك اليوم افتتحنا معاً مأدبة الحب ؛ فعدنا إلى ريش وأخذنا حقائبنا ورحلنا إلى لوزان ونزلنا فى فندق أكس لاشابل ، وهو فندق هادئ منعزل يقوم على شاطئ البحر كزاهد عازف يول ظهره ضجيج الحياة ويستقبل أفق الأبدية والأحلام

وعشت أياماً أذكرها دائماً كما يذكر السقيم عهد الصحة والعافية ؛ كان الحب فيها الحاكم القاهر المستبد الطاغى الذى لا يترك لشىء مكاناً من عقولنا أو نفوسنا ، وكنت أعلم أنها أيام وإن طالت قصار ، وإن صفت فإلى انتهاء سريع ؛ فأقبلت عليها بنهم وجشع ، أملأ من حسنها قلبى وحواسى ، كيلا أدع زيادة لمستزيد ، غير مؤجل متعة إلى غد أو مبق على لذة إلى حين ، أو تارك ثمرة بلا قطف والتهام ... وكانت شريكتى سعيدة راضية يسكرها الحب وتستخفها آيات العطف ، فتستزيد منها كما يستزيد النمل من الطرب

وتبين لى بغير كبير عناء أن آمالنا متباينة ؛

فكنت لا أفكر إلا فى حاضرى ، وأود لو أمتص ما فيه من حلاوة فى دقيقة واحدة ... أما هى فكانت تغار إلى بعيد ولا تفتأ تذكر المستقبل وترغب رغبة صادقة فى أن تطمئن إلى دوام السعادة والحب .

وقد عجبت لذلك وعلمت أنى لم أفهم بعد تلك المرأة ؛ وقد ظننتها حيناً امرأة مسهترة متقلبة الأهواء ، تحوب البلاد بعيداً عن زوجها طلباً للحب الآثم وانتهاباً للذات ... ولكنى وجدتها هادئة الطبع ، عظيمة المودة ، لا تسيطر عليها النزوات العمياء التى تورد أصحابها مهالك الفتن ..

وكانت أيامنا الأولى أيام حب خالص ، فلم يكدر صفوى مكدر ، إلا أن إفراطى الشديد ردنى إلى شىء من اليقظة والانتباه فاستطاع فكرى أن يتناول أموراً غير الحب ...

فكرت فى أنى أعتدى لأول مرة على حرمة الزوجية ، ولم يكن سبق لى أن اقترفت هذا الإثم المنكر فوخزتنى شكة الألم وأحسست بخوف غامض ، وزاد من ألمى أنى كنت على عتبة الحياة الزوجية وساءلت نفسى فى رعب ألا يجوز أن يقتص الله منى ويصيبنى يوماً فى المقتل الذى طعنت فيه الآخرين ..؟

— وهنا قاطعه أحد المستمعين قائلاً :

— وهل صدقت مخاوفك فيما بعد ...؟

وضحك البعض ونظر محدثنا إلى مقاطعه شزراً ثم استأنف حديثه قائلاً :

ثم فكرت فى أمر آخر لا يقل عن سابقه خطورة . فكرت فى أمر الزوج الغريب الذى يترك زوجته الحبل على الغارب . ما الذى عساه يفرق بينهما ؟ .. وكيف يرضى عن هذه الحياة الغريبة ؟ .. وإلا يمكن أن يظهر بغتة فى أفقنا الهادئ فتكون الطامة التى لا تدفع ...

وكانت هذه الأفكار تساورنى خارج الفندق بعيداً عن ظلها الخفيف ، ولكنى وجدت نفسى مسوقاً إلى مفاتحتها بهذا الحديث وقد فعلت ، فسألتها يوماً :

— ألا من أخبار عن زوجك ...؟

فكفهر وجهها وأظلمت عيناها وقالت :

— دع هذا الحديث جانباً ...

فاضطررت ساعتئذ إلى السكوت ، وفى نيتى أن أعيد الكرة مهما كلفنى ذلك . وكانت تتحامى هذا الحديث وتتهرب منه ، ولكنى قلت لها يوماً بإخلاص وحزم :

— ينبغى أن تعلمى أنه ليس الفضول الذى يدفعنى إلى معاودة السؤال ، ولكنه الاهتمام بشخص أعزه وأحبه وأرجو دائماً أن يفتح لى صدره وقلبه ...

كم فرحت لكلامى هذا ... لقد التصقت بى بوجد وحنان وتنهدت بسعادة وقالت :

— يا للسعادة ... طالما ضرعت إلى الله أن يهبنى قلباً حنوناً محباً ...

فداعبت خصلة من شعرها الأسود بيدى وقلت :

— إذاً هيا وصارحينى بكل شىء

— ولكنه حديث مؤلم كريه

فقلت :

— أنا لا أدرى شيئاً ، لأنك لم تريدى أن تطلعينى على شىء ، ولكنى كنت أرجح دائماً أن حياتك الزوجية غير سليمة . ومهما يكن من أمر فينبغى أن أعلم كيف يتركك زوجك هكذا ...

فهزت منكبيها باستهانة وقالت :

— إنه لا يعرف مقرى على وجه التحقيق ...

— ما أعجب هذا ... أستطيع أن أفهم أنكما غير متحابين ، ولكن الذى لا أستطيع فهمه هو أن تبقيا زوجين بعد ذلك ...

— إنه لا يطلقنى لأنه لا يستطيع الاستغناء عن مالى ... وسوى ذلك فلم يكن زوجاً قط وهو لا يطيق أن يكون زوجاً فى يوم من الأيام ... على أنى فى الواقع لا أرغب فى الطلاق ...

فحدقت فى وجهها دهشاً وقلت :

— هذا أعجب !

— لا تعجب لشىء . ألا ترى أنى هكذا مالكة لحريتى ؟ ... ولو كنت مطلقة ما استطعت أن أذهب إلى حيث أشاء . ولو كان لى من يهمه أمرى ويحنو علىّ بصدق لتغير مصيرى من بادئ الأمر ، ولكنى وحيدة ، وحيدة فى هذه الدنيا الواسعة . أنت لا تدرى ما الوحدة . . . أما أنا فقد تجرعت مذاقها المر طوال هذه السنين ... مات أبواى والتحق أخى الأوحد بوظيفة فى قنصلية اليونان ، ونبذنى زوجى .. فليس لى مكان آوى إليه أو قلب يعطف علىّ ... أنا منبوذة فى هذه الدنيا ...

فوجمت صامتاً وغلبنى التأثر الشديد ، ورأيت وجهها الجميل محتقناً كقطعة من الجمر ولمحت دمعة حبيسة فى عينيها فقلت :

— إنك جميلة وغنية فماذا كان يريد هذا الأحمق؟

— إنه وحش ضار وقاس جحود ، لم أستطع أن أعاشره كزوجة إلا أياماً معدودات ثم اضطرنى إلى حياة التشرد والهيمان ... ولو وهبنى الله طفلاً لاستعنت به على الصبر والرضا ولكنى حرمت حتى من هذا العزاء ...

وكانت تتكلم بتأثر شديد تخيل إلىّ أنى سأتبعها إلى البكاء ، وثرت فى نفسى على الحظ التعس الذى ضيّق عليها الخناق ، وخطرت لى فكرة فقلت لها :

— ألم يكن فى وسعك إصلاح ما أفسد الحظ ؟

فضحكت ضحكة مريرة وقالت :

— الحظ التعس لا يصلحه شىء وأنا ما قصرت قط ، وأصارحك القول بأنى كنت أحبه وما وافقت على الزواج منه إلا لأنى أحببته يوماً ، ولكنه مضى بعد الأسبوع الأول من زواجنا يقضى الليل خارج البيت ولا يعود إلا قبيل الفجر ، وكنت إذا انبريت لإصلاحه ومداهمة الشقاء الذى يهددنى به سخر منى وهزأ بمحاولاتى ، ولما ضاق بى ترك السخرية والهزء وعمد إلى الخشونة والفظاظة ...

وسكتت عن الحديث دقائق وهى مستسلمة إلى الشعور الأليم الذى أحدثته الذكريات ، ثم أردفت بصوت أعمق ووجه أشد اكفهراراً

— وأدركنى اليأس منه ، ولما أتم شهراً كاملاً فى بيتى الجديد ، وكان ذلك لحادثة محجية لا يمكن أن تمحى من ذاكرتى أيأستنى من الخير ودمرت كل فضيلة فى نفسى . ففى ليلة من ليالى شهر العسل كنت مستغرقة فى النوم بعد سهاد حزين ، وإذا بهزة عنيفة توقظنى من نومى فاستيقظت فزعة صارخة ونظرت بعينين مرتعبتين فرأيته جالساً إلى حافة الفراش ، وهممت بتعنيفه ، ولكن لسانى لم يتحرك فى فمى لأنه كان فى حالة سكر شديد كما تبينت ذلك من نظرته الذاهلة ووجهه المحتقن والرائحة التى تنبعث

من فمه ، وكان هنالك ما هو أدهى من ذلك ، كانت تقف قريبة منه امرأة غريبة فى مثل حالته من السكر الشديد . كانت تنتظر بلا ريب أن أوسع لها مكانى من فراش العرس ، ولم يمهلنى حتى أفيق من فزعى ودهشتى فقال لى بلسانه الثقيل الملتوى : (تفضلى خارجاً) ولم تنتظر صاحبته ، فدنت من الفراش وارتمت إلى جانبى ، ولم أتمالك نفسى فقزعت من مكانى إلى أرض الغرفة وفقدت رشدى ؛ فانفجرت غاضبة وانهلت عليه سباً ولعناً ، ولكنه هز كتفيه استهانة واستلقى إلى جانبها فغادرت الحجرة فى حالة جنونية ، وأحسست برغبة لا تقاوم فى هجر البيت ، وكانت ثيابى فى الدولاب داخل الحجرة ، فأخذت غطاء المائدة القطيفة وتلففت به وفتحت الباب وولجت خارجاً ، والديوك تصيح معلنة طلوع الفجر ، وهرولت فى الطريق الموحش لا ألوى على شىء حتى انتهت قدماى إلى البيت الوحيد الذى تعودنا الذهاب إليه ... بيت والدتك ... ولعلك تذكر الأيام القلائل التى قضيتها عندكم ... إنى لا أنسى تلك الليلة أبداً ... ولن تزال قائمة فى نفسى بجميع تفاصيلها ... وقد كانت فاصلة فى حياتى بين عهدين ...

إنى أذكر تلك الأيام بلا ريب ... ولكن كم كنت أجمل ما تخفى من التعاسة والبؤس ...

واحترمت فترة الصمت التى تلت ذلك ثم سألتها :

— كيف عدت إليه بعد ذلك ؟...

فهزت رأسها باشمئزاز وقالت :

— فى تلك الليلة انتهت حياتى الزوجية فى الواقع ولكنى كنت بلا مأوى وبلا معين فماذا أصنع ؟... عرض على اتفاقية فقبلتها ، وهى أن أعطيه من مالى على أن يعطينى حريتى ، وقد كان ... وغدوت حرة أقيم حيث أشاء وأفعل ما أشاء لا أسأل عما أفعل ...

وعالنى الأمر فقلت :

— وهل عشت سعيدة بعد ذلك ؟ ...

— فتنهدت وقالت :

— ليت ذلك كان ممكناً ... ما تمنيت على الله من شىء مثلما تمنيت أن يسلبنى حريتى هذه فى لقاء أن أحظى بالسعادة التى أحلم بها والعطف الذى أتحرق إليه ، وأنا مستعدة دائماً أن أتنازل عن حريتى بائنة لمن يهبنى قلبه وإخلاصه ... كم تعبت وكم بحثت ... وكم ضقت بحريتى ...

الآن علمت كل شىء ... لقد صرفت هذه المرأة التعسة عشرة أعوام فى البحث عن العبودية السعيدة فهل يا ترى وفقت إلى ما تريد ؟ ... كلا ... هى لم توفق ولا ريب ، ولو أنها وفقت إلى الحبيب الصادق ما ارتمت بين يدى أنا بهذه السهولة . لقد انصرمت السنوات العشر فى خيبة مريرة وخدع أليمة ، وما من شك فى أن الكثيرين تلقفوها بشراهة وجشع كما أفعل الآن ، ثم ردوها قهراً بعد شبع إلى حريتها البغيضة . وهكذا فالحرية نفسها تهون وترخص أحياناً وتعى فى طلب المستبد الغاصب ..

ولما انتهت من سرد قصتها نظرت إلىّ بطمأنينة واستسلام ، ثم ألصقت جبهتها بجبهتى وسمعتها تهمس فى أذنى قائلة :

— وأخيراً ...

وفهمت مدلول تلك الكلمة وعلمت أنى ألعب فى روايتها البائسة دور الأمل الأخير ، فإما أن أقوم به كما تتمنى أحلامها وإما أن أشق بها على اليأس القاتل

وأحسست بثقل تبعتى وران على صدرى همٌ عظيم وتساءلت حيران ترى ما هى أحلامها ؟ ... ألأن تدوم هذه العشرة ... وكيف لى بدوامها وأنا على قاب قوسين أو أدنى من الزواج ... ومضى تأثرى الشديد لتعاستها يهدأ نوعاً ، وأخذت أفكر فى نفسى وأنظر إلى علاقتى بها بعين متشائمة ، وأتساءل فى قسوة وأسفا عن طريقة للخلاص ... وكانت تأتى علىّ أوقات أعجب فيها من أنانيتى وأتساءل فى اشمئزاز — إذاً كيف كان شأن من لم يشعروا نحوها بغير الشهوة والطمع ؟ ... الحق أن عالمنا الإنسانى عالم شديد القسوة ، وما أضيع الفلسفة التى تعيب أصحابها فى الدعوة إلى القسوة وتحقيق تنازع البقاء ، فهى فى الحق تحصيل حاصل وجهد ما كان أحرى باذليه بالضن به ...

على أن الذى أزعجنى هو أن زينب فطنت لمشاعرى الخفية من غير أن أصارحها بها ، وبدا لى ذلك فى وجومها وبرودها وقنوطها . ولم أدهش لذلك فإنى من الذين لا يدرون كيف يخفون ما بنفوسهم ، وتفضحهم أعينهم وإيماءاتهم . ولم أكن بيّتت قط نية مصارحتها بعاطفة مما يتلجلج فى صدرى أو بفكر مما يحترق فى رأسى ، وقد كنت أفكر فى حالتها بعطف ومودة ، ولكن العطف شىء والحب شىء

وكنت أتوقع فى خوف وإشفاق أن تفاتحنى بما يقوم فى نفسها من الوساوس ، وكان ذلك يضاعف آلامى النفسية ورجوت أن تنقشع تلك السحابة من سماء حياتى دون أن تترك وراءها أثر الحزن أو ألم أو تأنيب ضمير . وانقلبت حياتنا تمثيلاً ثقيلاً ، وكان كل منا يعلم ما يشعر به صاحبه نحوه ولكننا كنا نتجاهل كل شىء ... لماذا لم تصارحنى بشعورها ؟ . ولماذا لم تهب للدفاع عن سعادتها الموهومة . . . لم يحدث شىء من هذا

وقد عدت ظهر يوم من عملى بالتفتيش فوجدت حجرتنا خالية ، وبحثت عيناى عن آثارها اللطيفة التى تعوّدت رؤيتها كالفساتين التى كانت تعلقها على المشجب أو الحقيبة التى كانت تضعها على المائدة فلم أر لها أثراً ، وأسرعت إلى الدولاب وفتحته على مصراعيه فلم أجد سوى ثيابى ، وناديت الخادم وسألته عنها فأخبرنى أن الهانم تركت الفندق الساعة العاشرة صباحاً وأنه أحضر لها بنفسه التاكسى ...

وبحثت هنا وهناك عن خطاب أو ورقة لأنى كنت أتوقع أن تترك لى كلمة ، ولكنى لم أعثر على شىء ...

لقد تركتنى دون كلمة وانتهى كل شىء

وجلست صامتاً واجماً تتنازعنى العواطف ، ولم أشعر براحة الخلاص الذى جاءنى بدون مشقة ، وأحسست بخجل وألم ووحشة ثقيلة ، ولم أجد رغبة إلى الطعام فقمت من فورى أبحث عن مسكن جديد ، لأنه كان يتعذر علىّ أن أبيت ليلتى فى تلك الحجرة المهجورة ...

وسكت الراوى لحظة ثم أردف :

ومضت سنوات لم أرها فيها ! ثم رأيتها منذ عهد قريب تساير شاباً أنيقاً فى ميدان المحطة ؛ ولكنى لا أدرى إن كانت ما تزال تبحث عن الحب والعطف أم أنها استنامت إلى القنوط ؟!...

نجيب محفوظ